الخضاب

فوزية علوي

جلست تُحنّي، الوجهُ عذبٌ والبهجة تنقّطُ في قلبها عسلاً فتشرق الأحداق.

لا أحدَ في الغرفة سواها.

عند قدميْها شمعدانٌ فضيّ أوقدتْ أصابعه الخمسَ، وطفقت تعرك العجين الأخضر الغضّ، فتتداعى في ذاكرتها نغماتُ الأعراس.

«الحنّة الحنينة
جابوها التُّجّارْ
فيدِكْ يا الْبْنيّة
تَخْضَارْ وتَحْمَارْ»(*).

غدا العجينُ سلساً مطواعاً.

جلستْ وقد وضعتْ قربها سلّةً من سَعفٍ أنيق، فيها قطنٌ ولفائف وسكين.

ستُحنّي... وستفرح غداً بجنائن الحبق تستحيل حقولاً من الشّقائق على كفّيها وقدميها. أخذتْ كرةَ العجين، لعقتها بلسانها، ثم بسطتها بأناة فوق راحة اليد اليسرى.

غطّتْ مساحةَ الجلد في دغدغة باردة حلوة. وثملتِ الأصابعُ تحت قبابِ العجين الأخضر. سوّتِ النتوءاتِ والزّوائدَ بالسكّين. ولفّت الأصابع في القطن: الخنصرَ والبنصرَ، والوسطى والسبّابةَ والإبهام. لفّتْ خرقةَ الكتّان على قبضة اليد مستعينةً بأسنانها. ستنام في اضطراب العشّاق.

ستنتظر الفجر بلهفة.

ستسبق الضوء إلى السّاحة، وستفرح بخشخشة القشور اليابسة في قبضتيها.

وستلتذّ لوطء الأرض بقدميها الملفوفتين.

ستفكّ الخِرَقَ عن أطرافها وتنتشي بوهج الجلّنار. هي تعرف أنّ الحنّاء يَعشق كفّيها فيُطلع فيهما أزاهيره. وأمّها طالما همست لها وهي تخضّب كفّيها:

«أنت سمراء، والحنّاء يَعشق الأسمر، لذلك فإنّ كفّكِ لن تتفتّح أكثر من أيّ فتاة شقراء.»

لن تغسل يديها، لأنّ الماء يغار من الق الحنّاء فيُبهت ألقه ويحيله بعد أيّام بقعاً صفراء.ومساحاتٍ كالكَدَمات السّود.

ستطليه بزيتِ الزيتون فيتوهّج لظاهُ، وستدسّ أنفها طويلاً في كفّها، تستنشق أريجَ الصّحاري البعيدة، والحكايا السّاحرة والتباريحَ الممنوعة والتعاويذَ الغاوية والكتاباتِ المطلسمة. «بلقيس» ملكة سبأ كانت ولا شكّ تُحنّي بريشة هُدهد. و«زنوبيا» لا بدّ أنّها كانت تُحنّي بذيْلِ فهد. وأمّها ترشّ الحنّاءَ في أركان البيت كلّما وَفدَ زائرٌ غريب. والعرائس في بلدتها يخضّبن بأكفّهنّ عتبات المنازلِ قبل الدّخول. أمّا هي فقد كانت تغرق في الحنّاء سيقانَ الخطاطيف الصّغيرة التي تسقط في الحوش موجوعةً بصعقات الكهرباء.

بدا تخضيبُ الكفّ اليمنى أعسر، وشمعةٌ ماتت تاركة شلاّلاً من الدمع الجامد.

ماذا ستفعل ويدها الأُخرى ملفوفة؟ ستستعين بلسانها!

أخذتْ كرةَ العجين، وضعتها في فمها ثمّ بسطتْها على كفّها. بدا الأمر أصعب.

هل ستفكّ السّبّابةَ اليُسرى؟

لِمَ لا تستعين بالسكّين وبأسنانها؟

الأمر يحتاج إلى كثير من الدربة الخاصّة، وهي لن تنام إلاّ إذا غرقت في جنان الحنّاء.

التفتت تأخذ السكّين.

بدا ظلُّها على الجدار كبيراً، مهولاً، يقلّدها في كلّ حركة تقوم بها. ورقصُ الشمعات على الجدار بدا مفزعاً.

حطّتْ شفرةَ السكّين على كفّها.

خرج الصّوتُ بارداً في العتمةِ:

– دعي الأمر لي، سأخضّب كفّك اليمنى، وقدميك، والليلةَ القادمةَ يكون دوري. أنا أيضاً أريد أن أفرح.

خرجت امرأةُ الجدار. طويلةً كانت كحكاية، بيضاءَ في لون الجصّ، والشعر أحمر كالنّار، ومنه يضُوعُ عبقُ الحنّاء.

بدت أصابعها طويلةً وهي تعرك الحنّاء.

قالت:

– أريقي ماء، ريقي جافّ، لم أشربْ منذ زمان بعيد.

– أصابعها باردة، وجسمها عار، ونهداها تهدّلا وقد وشّتهما زخارفُ غريبة.

شال من صوف أسود لفّته حول وسطها، بدا مخيفاً كقبضة من أفاعٍ.

حنّت اليدَ اليمنى بإتقان كبير، وكفّنتها في القطن.

(*) أغنية شعبية تونسية.

ماتت شمعةٌ أخرى، لتعمق وحشة العتمة. قالت امرأة الحائط:

– هاتي قـدَمكِ، وقـولي أيَّ وَشْمٍ تريدين؟ أعرف جميعَ الزّخارف والنّقوش والأقـواس. سـأوشّي قـدميْك بطريقـة مذهلة. أنت لن تدركي طبعاً جمالهما، مادُمتِ ستمشين فوقهما. لكنّك ستَفْتَنِين العشّاقَ إن أبصروا قدميك. ولو سألوك عن صاحبة الزّخارف، فلا تخبري أحداً، لأنّك لو فَعلتِ احْتَرقْ.

المرأة شُلّ لسانُهَا، فلم تكن تُجيب، ظلّتْ تحملق في خوفٍ جليديّ، وساقها ممدودة لا تملك من أمرها شيئاً، وامرأةُ الظلّ تعرك الحنّاء بتوتّر كبير، وتلعق فلا يستجيبُ لها ريقها، فتطالب بإراقة الماء، وترسم الدّوائرَ والخطوط.

قـالت لهـا: «رسـمتُ لكِ قـرنَ وعلٍ، وأسنانَ قِرْشٍ، وقـبـاباً وسـحـاباً. هاتِ اليسرى».

رسمتْ فيها حيّاتٍ وأسماكاً وتيساً.

لم يبق من عـمل إلاّ اللّمـسـات الأخيرة. امرأةُ الظلّ أخذت السكّينَ، بدتْ شفرته ملتمعةً في ضوء الشموع. قرّبَتْهُ من رجل المرأة بحـذر مـريب، سـوّتْ حـوافي القـدمين، بالغت في التـزويق. المرأة أرادت أن تجـذب رجلهـا. امـرأة الحائط أمسكتها بقوّة، وأمرتها أن تبقى هادئة.

عند الكعب أبصـرتْ عِـرْقـاً يخـفق بسرعةٍ شديدة. لامسـتْه بالسكّين فانبثق الدمُ سخيّاً حارّاً.

المرأة صـاحت: «ويحك مـاذا فـعلتِ بي؟» الأخرى أجابت: «لم أفعل شيئاً، فـقط أردتُ أن أخـضّب كـاملَ جسـمك حتّى يكون العرسُ تامَّ الشّروط».

الجسدُ ارتخى.

عجينُ الحنّاء تشقّق في الإناء.

المرأة واصلتْ تخضيبَ الجسد.

نبيبُ التّيس تَعَالَى.

الشمعةُ الأخيرة ارتجفت.

امرأة الحائط نزعتْ شالها، بسطته على الجَسَدِ المُسَجّى.

الحنّاء فاحتْ بطريقة خانقة.

الشمعة ماتت.

الغـرفـة غـرقتْ في الظّلمـة، وامـرأةُ الظلّ عادت إلى الجدار.

تونس

قصائد

كاظم الحجاج

(١) كاريكاتير،

إمرأةٌ حُبْلَى في آخرِ أيّام الحَمْل
تجلُس صاغرةً تتبسّم..
يَجلِسُ قُدّامَ المراةِ رجلٌ
– بثياب البيت –
يبدو شرساً، بشواربِ قرصانْ،
وبإحدى كفّيهِ عصاً؛
تتهدّدُ بطْنَ الحاملِ
والتعليق:
«فلْيتأدّب منذُ الآنْ!»

(٢) عارضة أزياء،

لم تأكل مِن عامينِ
سوى ما يسمح للعظم المشوق
بأنْ يبقى يتراقص تحت الجِلد النّاعم
لِتقولَ:
بأنّ مجاعتَهم، لو حلّتْ،
فهيَ الأكثرُ إغراءً
مِن كُلِّ مجاعاتِ الفقراء!

(٣) تجنيس،

أجملُ موتٍ للسُكّر،
في أقداح الشاي..
ولهذا؛ ما أحلى ذوبانَ الشُعراء!

(٤) أجزاء المرأة،

فرحي قليلٌ في المرايا
ولأنّني أحببتُه؛
كسّرتُ مراتي ليكثُرَ
في.. الشظايا!

(٥) همسة،

الدمعةُ ماءٌ مسجون
ينتظر الحريّةَ
مِن حُزنٍ قادم!

(٦) المثل

السيد مخرجنا المغرور
أعطاني دَوْراً
ولأنّي مقبولٌ، من حيث الجثّةُ،
للدور.. وافقتُ
وقال المخرجُ:
– احفظْ دورَ السلطان العادل!
– ها.. ها.. (في سرّي طبعاً!)..
سلطانٌ عادل!
وكأيٍّ من أبناء الكلبِ ظهرت على
المسرح أقتل.. أشنق.. أمرح.
وتزوجت جميع نساء الدولةِ
(أعني كلّ بناتِ الكومبارس!)
لكنْ..
كان عليَّ – أنا السلطانَ العادل –
أن أشنق شحّاذاً
من أجل رغيفٍ مسروق
.. أفسدتُ الدور!
لأنّي سامحتُ الشحّاذ
بل قبّلتُ يديه!

(٧) أمجاد،

حتى بين رصاصات الجنود
رصاصاتٌ محظوظةٌ:
تلك التي تخطئ أهدافَها
ورصاصات تعيسةٌ:
تلك التي ترتكبُ أمجادَ الحروب!

بغداد